الكتاب المدرسيّ وآلية صناعته

دراسة في المجال النظري وتطبيقاته على الكتاب المدرسي الجزائري

رشيد فلكاوي

المدرسة العليا للأساتذة - قسنطينة

• مقدّمة

ممّا لا شكّ فيه أن الكتاب المدرسي هو الوسيلة التعليمية الأولى والدائمة للمعلم والمتعلم خاصة في المراحل التعليمية الأولى، فهو بمثابة المرجعية والقاعدة التي يعود إله طرفا العملية التعليمية في مجموعة من المواقف التعليمية، انطلاقا من الفترة التي تسبق العملية أي أثناء التحضير للدرس مرورا بالموقف التعليمي أثناء عرض المحتوى، وصولا بفترة المراجعة والتقييم، حيث يقدم الكتاب المدرسي خدمات تعليمية جليلة منها ما يتعلق بإثراء عملية التعلم عند المتعلم، كما يساهم كثيرا في ترسيخ الكثير من المعلومات عن طريق عرض الصور والجداول والخرائط والمشاهد التي تشرح النص بطريقتها الخاصة، خاصة إذا كان النص بنية مفهومية مجردة لا يستطيع المتعلم إدراكها، كما يكون المرجع الذي يستأنس إليه المتعلم وحتى المعلم.

ولا تقف درجة أهمية الكتاب عند طرفي العملية التعليمية فقط بل تتعداها إلى الأسرة والمنظومة التربوية والسياسة التعليمية لبلد ما بشكل عام، فالكتاب المدرسي يمثل الواجهة التي تتبين فيها إستراتيجية البلد وتوجهاته ومدى قوته

في تحقيق طموحاته وطموحات أفراده، فهو الذي سيساهم في تربية المتعلم في مختلف مراحل التربية والتعليم، خاصة منها الأولى "الابتدائي، المتوسط والثانوي"، ويتدخل في بناء شخصيته من خلال مختلف المواضيع التي يطلع عليها في ثناياه، كما يمثل أيضا حلقة وصل بين الأسرة والمدرسة، فبواسطته يتابع المشرفون على المتعلم في المنزل مدى تقدم المتعلم في دروسه اليومية، ويعد أيضا حلقة وصل بين المعلم والمتعلم، من خلال ما يتضمنه الكتاب من مختلف الأنشطة التي يتقاسمها طرفا العملية التعليمية.

إن أهمية البحث في مثل هذه المواضيع تنبثق من أهمية الكتاب نفسه، خاصة ما يتعلق منها بالشق اللغوي، أو ما يطلق عليه التمارين اللغوية المدعمة للنص المعروض، من أجل إكساب المتعلم ثروة لغوية، بل الأهم من كل هذا أن يكون المتعلم قادرا على ممارسة المكتسبات اللغوية القبلية التي تعلمها في الموقف التعليمي من أجل جعلها وظيفية أي يحولها من مكتسبات إلى مهارات لغوية أدائية، ومن أجل ضمان هذا الهدف الأسمى لابد أن يوضع بعين الاعتبار أثناء صناعة الكتاب المدرسي، من خلال التفكير عن وظيفية الكتاب المدرسي في الحياة العامة.

تقدم الورقة العلمية من خلال جزئيها النظري والتطبيقي مجموعة من الأسس النظرية المعتمدة عالميا من أجل صناعة الكتاب المدرسي، خاصة في ظل اقتصار المسافة والزمن، وتطبيقاتها على الكتاب المدرسي الجزائري، وتتبع مدى فاعلية هذا الكتاب عند المعلم والمتعلم، من أجل الوصول إلى مجموعة من النتائج التي تخدم موضوع "الكتاب المدرسي"، إضافة إلى مجموعة من التوصيات من أجل تقييم الكتاب المدرسي.

1. مفهوم الكتاب المدرسيّ

هو أداة ووسيلة تعليمية، يكون بمثابة الموجه والمرشد للمتعلم والمعلم، يحتوى على مجموع المواضيع المقررة رسميا من قبل الجهة الوصية، وعادة ما يكون الكتاب المدرسي ورقيا، يتاح لأغلب المتعلمين المتمدرسين، كما يكون

إجباريا لكل متعلم خاصة في المراحل الأولى من التعليم، يتقيد به ويكون ملازما في مختلف المواقف التعليمية، عرفه أحد المختصين بأنه «أهم مصدر تعليمي يمثل أكبر قدر من المنهاج التربوي المقرر، ويوفر أعلى مستوى من الخبرات التعليمية، وهو أداة مهمة من أدوات التعليم والتعلم يعتمد عليها المتعلم في تنظيم تعليمه، والمتعلم في قراءته وأنشطته لإحداث التغيرات المرغوبة في أنماط سلوكه»[1].

يشكل الكتاب المدرسي المصدر الأول بالنسبة للمتعلم إذ يعتمد عليه في بناء معارفه، كما يعود إليه في كل المواقف التعليمية، فهو المؤنس له في كل المواقف وهو الرفيق في جميع الأطوار التعليمية الأولى "الابتدائي، المتوسط، الثانوي"، كما يعرف أيضا في القواميس المتخصصة أنه «الوعاء الذي يحتوى المادة التعليمية التي يفترض فيها أنها الأداة، أو إحدى الأدوات على الأقل، التي تستطيع أن تجعل التلاميذ قادرين على بلوغ أهداف المنهج المحددة سلفا ... وهو المرجع الأساسي الذي يستقي منه التلاميذ معلوماتهم أكثر من غيره من المصادر، فضلا عن أنه، أي الكتاب، هو الأساس الذي يستند إليه المدرس في إعداد دروسه قبل أن يواجه تلاميذه في حجرة الدراسة»[2]. فللكتاب المدرسي علاقة بالمنهج المقرر بل هو المكمل له، وهو إحدى أدواته ومكوناته الأساسية.

وقد عرف أيضا أنه «الأداة الأساسية في تنفيذ المنهج المقرر، إذ يقدم للجميع قدرا مشتركا من الحقائق والمعلومات التي يجب أن يلم بها الطالب، ويترك المجال لهم بعد ذلك بالتوسع حسب فروقهم الفردية ووفقا لقدراتهم العقلية ويقدم كذلك الخبرات للطلاب الصغار ويعرضها بأسلوب جذاب، ويساعدهم على فهم المادة الدراسية»[3]. حيث يتضمن هذا المفهوم إضافة إلى تعريفه مواصفات الكتاب الجيد الذي يجب أن يكون في ضوء المعطيات الواردة فيه كما يلي :

1- ضرورة مراعاة قدرات الطالب؛

2- منحهم المجال والحرية في التوسع من خلال خلق فضاء وهامش حر لهم؛

3- تقديم مجموعة من الخبرات للمتعلمين المبتدئين بأسلوب شيق؛

4- تتمثل المهمة الأساسية التي وضعت من أجله أصلا هذا الكتاب في فهم المادة الدراسية المعروضة عليهم.

2. المعايير النظرية المأخوذة أثناء صناعة الكتاب المدرسي

- **المعيار الديني :** لا يخلو أي كتاب في العالم من مواضيع ذات علاقة بالمعتقد الديني لشعب من الشعوب، لأنه هو الأساس المنظم لحياتهم الاجتماعية، ومنه يستلهمون طرائق عيشهم، لذا كان الدين المعيار الأول الذي تقاس عليه مختلف المواضيع، كما أنه المنهل الأول الذي تؤخذ منه المادة الدراسية، ولا يجب أبدا أن يتعارض المحتوى المعروض في الكتب المدرسية مع المعتقد الديني، وإلا سيرفض من قبل اللجنة الخاصة بتقييمه، وسيرفض حتما حتى من قبل المعلمين والمتعلمين، كما تتشكل عادة مجموعة من المواضيع بعينها مادة ملهمة للمفكرين والأدباء، كسير الرسل والأنبياء، والعظماء الذين حملوا ونشروا ديانة أو معتقد ما، أما من الناحية العربية الإسلامية فأول معيار يؤخذ بعين الاعتبار هو الدين الإسلامي وتعليمه، إذ لا تدرج مواضيع متناقضة مع ما يفرضه القرآن الكريم، والسنة النبوية، كما شكلت السور القرآنية والأحاديث النبوية وسيرة الرّسول ﷺ مصدرا أولا من مصادر صناعة الكتاب المدرسي الجزائري، من أجل تربية المتعلمين على التعاليم الدينية الصحيحة، وتصحيح مسار حياتهم في الطريق الذي يخدم الفرد والمجتمع.
- **المعيار الهوياتي :** لكل شعب هوية خاصة به، يحتفظ ويعتز بها بل ويدافع عنها، ويعتبرها خطا أحمر لا ينبغي تجاوزه، ولذلك لابد أن ترسخ مجموعة من المكونات التي تشكل هوية شعب من الشعوب، حيث تتأسس أولا الهوية من الرقعة الجغرافية، اللغة، الدين، فالرقعة الجغرافية تتمثل في ذلك التخطيط العالمي الذي يتأسس على سيادة الدول بأراضيها، باستثناء بعض الدول في العالم التي ما تزال تحت نير الاستعمار والاستيطان، كما أن اللغة تعتبر من ثوابت الهوية، يلزم على الشعوب الحفاظ على هوياتهم باللغة التي تجسدها

المحتويات التعليمية، إذ تسعى الكتب المدرسية في العالم إضافة إلى تعليم مجموعة من المعارف، تعليم اللغة الرسمية والوطنية الخاصة ببلد ما، بل يسعى كل بلد إلى البحث عن إمكانية تحصين المتعلمين من رياح العولمة وأحادية اللغة والمعرفة، إذن ينبغي على الكتاب المدرسي الجزائري أن يساير هذا المعيار العالمي من خلال تقديم المحتوى باللغة العربية وهي اللغة الوطنية والرسمية، بمعنى تعليم المحتوى باللغة، إذ تعتبر وسيلة من أجل غايات أخرى، كما يجب أن تكون هي أيضا غاية في حد ذاتها من خلال التركيز على التمارين اللغوية.

- **المعيار الأخلاقي :** يجب أن تركز الكتب المدرسية بشكل عام على مجموعة من القيم الأخلاقية التي تحفظ النسيج الاجتماعي، وتساهم في تسيير المجتمع بشكل لائق يحفظ النظام والتوافق بين جميع أفراده، وهو معيار مكمل للمعايير الأخرى، إذ تهدف الكتب المدرسية من خلال اختبار مواضيع معينة إلى غرس مجموعة من القيم الإنسانية في الفرد المتعلم، من أجل الوصول إلى الهدف المنشود إليه.
- **المعيار الاجتماعي :** لا بد أن تساير الكتب المدرسية النموذج الاجتماعي وطريقة تفكيره من خلال الالتزام ببعض العادات والتقاليد البناءة، والتي لا تتعارض مع المعايير السابقة، حيث تؤثر العادات والتقاليد بشكل لا يستهان به في عقلية الفرد والمجتمع، بل قد تصل في بعض الأحيان أن تؤصل لمجموعة من القيم داخل المجتمع، لذا لا يجب على الكتاب المدرسي معارضتها خاصة إذا كانت بناءة، فالمجتمع الجزائري مثلا يزخر بمجموعة من العادات والتقاليد تساهم بشكل كبير في تشكيل اللحمة بين أفراده نذكر حصرا: التويزة، الزيارات في مختلف المناسبات سواء في السراء والضراء، إذ لا ينبغي للكتاب المدرسي الجزائري أن يتجاهلها بل يدعمها بمواضيع في وحدات مختلفة من أجل تربية المتعلمين عليها، وترسيخها في أذهانهم.

- **المعيار الذاتي :** لا بد أن يترجم الكتاب المدرسي ذاتية شعب من الشعوب، لا أن يكون مجرد نسخ لمعلومات ومعارف وردت هنا وهناك، دون مراعاة ذاتية البلد الذي يدرّس فيه هذا المحتوى، ونحن في هذا المقام لا نتحدث عن الذاتية الفردية، وإنما نتحدث عن الذاتية الجماعية، وهي تتمثل في العقلية المشكّلة للتفكير العام كنمط وكطريقة عيش تتحكم فيها مجموعة من الثوابت، كما ساهمت في تشكيلها مجموعة من الترسبات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فالتفكير السائد بشكل عام في الجزائر يختلف عن المغرب وتونس مثلا، بالرغم من القواسم الكبيرة المشتركة، وكلما اتجهنا شمالا نحو الضفة الأخرى ازداد الفرق تباعدا.
- **المعيار الايديولوجي :** نقصد بالإيديولوجية في هذا المقام «نظام من الأفكار والمعتقدات، يكون قادرا على التحكم في تصرف الفرد أو الجماعة»[4].

3. مواصفات الكتاب المدرسي

- **الإخراج الجيد للغلاف الخارجي والشكل الداخلي :** يساهم الإخراج الجيد للكتاب المدرسي بشكل مهم في فاعلية الكتاب المدرسي سواء تعلق الأمر بالغلاف الخارجي أو الشكل الداخلي، إذ يعد عنصر جذب واهتمام من قبل المتعلم من أجل خلق التركيز والمقارنة بينه وبين البنية المعرفية التي يحتويها، فغالبا ما تكون الصورة مقربة وموضحة للمعارف المجردة بفضل تجسيدها لها، ومن اجل الوصول إلى النموذج في تأليف الكتاب المدرسي يجب مراعاة ما يلي :[5]

- شكل الكتاب الخارجي وتصميم غلافه،
- حروف الكتاب التي يجب أن يكون حجمها مناسبا لعمر الطالب، ويجب تشكيل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة،
- يجب أن يكون طول الأسطر والمسافة فيما بينها مناسبة،
- وزن ولون ونقاء الورقة ومتانتها.

يمثل شكل الكتاب الخارجي العتبة الأولى التي يقف عليها المعلم والمتعلم، وهو المرآة العاكسة للمحتوى من خلال الإخراج ومراعاة شكل الصور والرسومات، إضافة إلى الخط المكتوب به وشعار الكتاب، حيث «يشكل غلاف الكتاب مادة مساعدة في التعلم، وهو في ضوء تحديد محتوياته وأشكاله وألوانه، إنما يعبر عن موضوع مادة الكتاب، أو عن قسم من مادة الكتاب. ويمضي المؤلفون والمصممون - أحياناً - وقتاً طويلاً لإخراج غلاف الكتاب المدرسي؛ لما فيه من مسئوليات جاذبة للتعلم، ولما فيه من ملخصات ضوئية وصورية تشكل مؤثرات بصرية مهمة، لذا لا ينبغي التساهل في اختيار شكل الغلاف من منطلق أنه ليس إلا قطعة من الورق تحمي محتويات الكتاب»[6].

أما الشكل الداخلي فهو أيضا مهم جدا بالرغم من بساطته، إلا أنه يساهم إما في جذب أو تنفير المتعلمين عن الكتاب المدرسي، إذ يجب أن تتبع مجموعة من الخطوات المنهجية السليمة أثناء عملية التحرير، ومراعاة التتابع المنهجي السليم في وضع مختلف العلامات، وكذلك اختيار نوعية الخط الذي سيكتب به المتن، والتغيير في حجم الخط من فكرة إلى فكرة أخرى حسب أهميتها، فالعنوان الرئيس مثلا يختلف عن العنوان الفرعي، وهذا الأخير يختلف عن خط المتن، إذ ينبغي أن يعتمد على التدرج من الأكبر إلى الأصغر من أجل توضيح القصد من التغيير الذي طرأ على حجم الخط، وكذلك استعمال الألوان خاصة عند فئة الأطفال لجذب انتباههم، وتقريب الصورة المجردة إليهم.

- **دقة وسلامة اللغة المستعملة في الكتاب المدرسي ووظيفيتها :** لا بد أن تراعي اللغة مستوى وعمر المتعلمين، وإمكانياتهم العقلية، إضافة إلى مراعاة لغة الوسط الاجتماعي أي لغة المنشأ الاجتماعي، من أجل تحقيق التكافؤ بين ما يتحدث به المتعلم خارج القسم والمدرسة وما يأخذه من مادة لغوية تعليمية في الكتاب المدرسي، كما يجب أن تكون وظيفية، يستعملها خارج القسم، مع أقرانه ومع جميع أفراد العائلة، وحتى في الشارع، ولتحقيق ذلك لابد من مراعاة ما يلي :[7]

- وضوح الأسلوب في التعبير، والبعد عن الإيجاز المخل أو الإسهاب الممل، وضرورة مطابقة الوصف للفكرة مع احتساب عقلية الطالب وإدراكه ومرحلة نموه، إذ لا بد من تنوع الخطاب لعمر القارئ.
- جمال الأسلوب بما يبعث على التشويق للطالب، مع حسن التبويب والتسلسل المنظم المتتابع في عرض المادة العلمية وحسن تجزئتها بنقاط متتابعة.
- المفردات اللغوية يجب أن تكون واضحة المعنى ومألوفة، وإن كانت مصطلحات فقهية أو علمية فلا بد من شرحها تيسيراً لفهم المادة العلمية، كما أن طول الكلمات وقصرها وصياغتها له أثر في الفهم.
- أسلوب الكتابة : يجب أن يكون أسلوبا أدبياً ممتعاً .

▪ **مطابقة المحتوى لسن التلاميذ وإمكانياتهم الذهنية :** يجب أن يراعي المحتوى سن التلاميذ والإمكانيات العقلية التي يتمتعون بها، كذلك الأخذ بعين الاعتبار الظروف الاقتصادية لأسر المتعلمين، حيث تؤثر هذه الأوضاع إما إيجابا أو سلبا، فينبغي استشارة المصالح الخاصة قبل صناعة الكتاب المدرسي من أجل تزويدهم بمعطيات وحقائق إحصائية دقيقة عن المجتمع الذي سيوجه إليه الكتاب المدرسي، إذ من غير المعقول أن تدرج مواضيع لا يعرفها ولم يسمعها المتعلم أصلا في حياته الاجتماعية. إذ يجب «أن تكون موضوعات التربية الوطنية من بيئة التلاميذ، وخبراتهم الحياتية ونشاطاتهم ومتفقة مع ميولهم وحاجاتهم ومستواهم».[8]

▪ **التناسق والانسجام بين المواضيع والوحدات :** يجب أن تأتي المواضيع المقررة في الكتاب المدرسي منسجمة ومتناسقة ومتكاملة فيما بينها، خاصة تلك المتعلقة بوحدة مشتركة بينها، من أجل عدم التأثير على أذهان التلاميذ والتشويش عليهم، عن طريق الخلط بين المواضيع الأدبية مثلا والمواضيع العلمية، وبين المواضيع المحلية والمواضيع العالمية، وبين المواضيع القديمة جدا والمواضيع الحديثة، خاصة تلك التي لا تتيح المجال للمقارنة أصلا بينها، بل تزيد العملية التعليمية تعقيدا، يجد المعلم نفسه مرغما على إنهائها في الوقت

المحدد من جهة وإيصالها إلى المتعلمين من جهة أخرى، فلا يكفيه الوقت للمقارنة بين هذه المواضيع التي لا تقبل المقارنة، وهذا ما سيسهم حتما في ضعف الكتاب المدرسي.

- **الاستجابة لمتطلبات العصر :** نقصد بمتطلبات العصر ما يعيشه المتعلم في وقتنا الحاضر من رفاهية علمية وتكنولوجية سخرت له في كل الأوقات والأماكن، إذ يجب على الكتاب المدرسي أن يضمن مكانته بين هذه الوسائل التكنولوجية الحديثة والكثيرة جدا، كما يجب أن ينافس أيضا الكتاب الالكتروني الذي يقدم خدمات جليلة للمتعلمين، وبالتالي ليس من السهل أن يضمن الكتاب المدرسي مكانة بين هذه الوسائط التكنولوجية التي انبهر بها المتعلم الحديث، كما يجب أن تكون مواضيعه لها علاقة بالواقع المعاش، الذي يجسد الحياة العصرية لا أن يتمثل الزمن الماضي الذي لا يكاد يقترب من أذهان المتعلمين، وبالتالي فمن بين مواصفات الكتاب المدرسي أن يكون واقعيا من خلال الارتباط بالزمن الحاضر، من أجل جذب المتعلمين نفسيا ورغبة لا رهبة من عقاب المعلم.

4. وظائف الكتاب المدرسي

1.4. الوظيفية التكوينية أو التعليمية : هي من الوظائف الأساسية التي يضطلع بها الكتب المدرسي، تتلخص مهامه في تزويد المتعلم بمختلف المعارف، وهو المتعارف عليه أثناء تعريف الكتاب المدرسي، بأنه الوعاء الذي يحمل المعارف للمتعلم قصد مباشرة العملية التعلمية التعليمية، فهو المرافق للتلميذ من السنة الأولى ابتدائي إلى السنة النهائية من المرحلة الثانوية، وهو أيضا موجه ومعين للمعلم أثناء مباشرة مهامه.

2.4. الوظيفة التنظيمية : يقوم بتنظيم مختلف المعارف في وحدات حسب المدة الزمنية، كما يعلم التلميذ من منظور المقاربة بالكفاءات طريقة التصرف فيه، وما يكون واجبا الاطلاع عليه، وما يكون وظيفة منزلية، من أجل تربية المتعلمين على التعامل مع وسيط تربوي بطريقة منظمة، تسهل عليه اكتساب مختلف المعارف والخبرات.

3•4. الوظيفة المهارية : إن الغاية الأسمى من التعليم هو إكساب المتعلمين مجموعة من المهارات بشكل عام وفي كتاب اللغة العربية المهارات اللغوية بشكل خاص، بحيث ينبغي على المتعلم بعد إنهاء فترة زمنية تعليمية أن يكون قادرا على :

- الاستماع جيدا لما يقال له والإنصات وإدراك المفاهيم المحسوسة والمجردة منها،
- التحدث والتواصل مع الآخرين بطريقة سليمة تخلو من العيوب اللغوية والركاكة والفصل بين اللغات واللهجات،
- القراءة الجيدة بأنواعها في الكتب المدرسية وفي الكتب الأخرى كالمجلات والجرائد،
- الكتابة بشكل سليم دون أخطاء لغوية، والتمكن من التعبير الكتابي أثناء عملية إنشاء فقرات،

4•4. الوظيفة الاجتماعية : تروم السياسة التربوية الحديثة بشكل عام تكوين فرد سليم يستطيع أن يندمج في المجتمع الذي يعيش فيه، وهذه الغاية تتجسد في الكتاب المدرسي، إذ يسعى في كل النصوص التركيز على الجوانب الاجتماعية ومساهمة الفرد في خدمة وتنمية المجتمع الذي يعيش فيه مهما كان دوره، لصيانة الفرد المتعلم من كل المظاهر السلبية المنتشرة في المجتمع كالسرقة، والسب والشتم، إلخ، بل إن ما يراعى أثناء صناعة الكتاب المدرسي هو واقع المجتمع الذي يعيش فيه المتعلم، عن طريق ذكر الآفات الاجتماعية من جهة من أجل تجنبها، والإشادة بمختلف الظواهر الاجتماعية التي تساهم في بناء المجتمع من جهة أخرى من أجل الاقتداء بها .

ثانيا : الدراسة التطبيقية :

1•2. تحديد المشكلة : أجرت وزارة التربية الوطنية في الجزائر تغييرات جذرية على المنظومة التربوية منذ مطلع الألفية مسايرة للتطورات العلمية والتكنولوجية الهائلة التي حدثت في عالمنا المعاصر، وكذلك من أجل مسايرة المستجدات الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية التي أقبل عليها المجتمع

الجزائري في السنين الأخيرة، وقد طال هذا التغيير مختلف جوانب العملية التعليمية كالمعلم والمتعلم، المحتوى، الطريقة، والوسائل، كما غيرت التوجه العام في السياسة التربوية المتمثل في المقاربة بالكفاءات، ومن بين ما أولت به عناية خاصة "الكتاب المدرسي" باعتباره الوسيلة الأساسية في العملية التعلمية التعليمية، وقد أطلقت على هذه الإجراءات الجديدة تسمية "الإصلاحات التربوية"، فيما ظهرت بوادر جديدة في هذه الأيام أو رياح أخرى تربوية جديدة سميت بـ"إصلاح الإصلاحات".

نروم من خلال هذه الورقة العلمية وبمناسبة انعقاد الملتقى العلمي المغاربي الذي يبحث إشكالية «تقييم فاعلية الكتاب المدرسي في التحصيل اللغوي لتعليم اللغة العربية بالدول المغاربية». أن نثير إشكالية أخرى جانبية لها علاقة بالإشكالية الرئيسية، وتجيب عن محور من المحاور تتمثل في «مدى استجابة الكتاب المدرسي الجزائري للمعايير النظرية المطروحة أثناء صناعته» أولا ثم تليه إشكالية أخرى تتمثل في «مدى استجابة الكتاب المدرسي للإصلاحات التربوية الجزائرية أولا ولإصلاح الإصلاحات ثانيا»، إضافة إلى الإنهاء بإشكال آخر علمي منهجي تنسيقي يتمثل في ما يلي: « مدى التنسيق الموجود بين وزارتي التعليم العالي والبحث العلمي ممثلة في باحثيها وأساتذتها ووزارة التربية الوطنية».

2.2. أسئلة الدراسة : تجيب الورقة العلمية عن الأسئلة التالية :

1- ما مدى استجابة الكتاب المدرسي للمعايير العالمية ؟

2- ما مدى استجابة الكتاب المدرسي لمتطلبات العصر ؟

3- ما مدى استجابة الكتاب المدرسي للمنافسة المفروضة عليه من قبل الكتاب الإلكتروني ؟

4- ما هي وضعية التمارين اللغوية في الكتب المدرسية الجزائرية ؟

5- هل يمكن أن يستجيب الكتاب المدرسي الحالي لرهانات الإصلاحات ؟

2.3. أهداف الدراسة : تهدف الدراسة إلى ما يلي :

1- تطبيق المعايير النظرية المحددة في الدراسة النظرية على الكتاب المدرسي الجزائري.

2- تحديد الجوانب الإيجابية والسلبية في الكتاب المدرسي الجزائري.

3- تحديد مدى تطبيق آليات صناعة الكتاب المدرسي من منظور الجودة الشاملة على الكتاب المدرسي الجزائري.

2.4. حدود الدراسة : تفرض المنهجية العلمية والمناسبة أن تقتصر الورقة العلمية على صفحات محدودة، لذا كانت العينة مأخوذة بناء على اختيار نموذجين من كل طور وبالتالي تصبح العينة ممثلة في ما يلي :

1- كتاب رياض النصوص "قراءة، تعبير، كتابة"، السنة الثالثة من التعليم الابتدائي.

2- كتابي في اللغة العربية، السنة الرابعة من التعليم الابتدائي.

3- كتاب اللغة العربية "تنوير"، السنة الثالثة من التعليم المتوسط.

4- كتاب اللغة العربية، السنة الرابعة من التعليم المتوسط.

2.5. تحليل العينة : لقد حددنا في المجال النظري مجموعة من الآليات التي سنأخذها كمعيار للحكم على مدى استجابة الكتب المدرسية المحددة في العينة لها، حيث تتمثل هذه العملية تقييما لهذه الوسيلة التعليمية الأساسية في الأطوار التعليمية الأولى، وهي عملية مهمة جدا تنطلق من تشخيص الظاهرة المراد دراستها والحكم عليها انطلاقا من المحددات النظرية من جهة وتطلعات المتعلم المعاصر من جهة أخرى.

2.5.1. مدى استجابة العينة لمعيار الإخراج الجيد للغلاف الخارجي والاهتمام بالشكل الداخلي

إن ما لاحظناه على العينة أنها قد اختلفت في حجمها، إذ اتخذت كتب التعليم الابتدائي ممثلة في كتابي السنة الثالثة والرابعة الحجم الكبير

والعريض، بينما كانت كتب التعليم المتوسط قد أخرجت في حجم صغير، وهذا التفاوت في الحجم بين الصغر والكبر يعود أيضا إلى التفاوت الحاصل في عمر التلميذ، فالمتعلمون في مراحلهم الأولى يناسبهم أكثر الحجم الكبير من أجل إيضاح الرموز الكتابية بشكل كبير، والتركيز كثيرا على الرسومات والصور، من أجل تقريب الأفكار المجردة إلى أذهان الناشئة، في حين لا يحتاج التلميذ في الطور المتوسط إلى كتاب من الحجم الكبير.

أما من حيث الألوان والرسومات فالظاهر في الكتب المدرسية في الطور الابتدائي أنها تميل إلى التركيز على الصورة واللون، يظهر هذا الإجراء جليا على العينة المدروسة استعمل فيها اللون الأزرق والأخضر، وكلاهما يشيران إلى عالم الطفولة الممتلئ بالأمل والحياة، إضافة إلى الصور المدرجة في الغلاف الخارجي التي تشير إلى المحيط الخارجي كالأشجار والحيوانات الأليفة، المسبح، الباخرة، والأطفال وصورة لرجل حامل سيف بين يديه وطفل يغني بآلة القيثارة، إلخ.

هناك بعض الصور التي لا تمت بصلة إلى الواقع الاقتصادي والاجتماعي للكثير من المتعلمين، إضافة إلى أن الجزائر ليست هي الشمال فقط بل تمتد جنوبا إلى أقصى الصحراء، وهذه الصور المعروضة لا تعطي الانطباع بأن الكتاب وطني، وإنما هو جهوي يرتبط بولاية ساحلية[9]، فلا يمكن مثلا لطفل ينتمي إلى عائلة متوسطة الحال أو فقيرة أن يتمثل في ذهنه مدلول السفينة أو المسبح حتى وإن رآه في الصورة لأنه لم يعش هذه الوقائع ولم ير هذه المشاهد في حياته، كما أن المتعلم في المناطق الصحراوية لا يمكن له أن يتمثل هذه المشاهد، لنصل في الأخير إلى نتيجة وتوصية تتعلق بهذا العنصر تتمثل في ما يلي :

يجب الأخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية والاقتصادية والموقع الجغرافي للبلد أثناء وضع الصور على واجهات الكتب المدرسية.

2.5.2. مدى استجابة العينة لمعيار دقة وسلامة اللغة المستعملة في الكتاب المدرسي ووظيفيتها

إن الحديث عن هذا العنصر يؤدي بنا إلى الحديث عن واقع استعمال اللغة العربية في المجتمع، ومدى فاعلية الكتاب المدرسي في زرع هذه العادة اللغوية المنشودة من قبل الباحثين، حيث تتفق أغلب الدراسات الميدانية أن اللغة العربية بقيت حبيسة أوراق الكتاب، وإن استنطقت في القسم بين المعلمين والمتعلمين فهي لا تحدث بشكل دائم ومتواصل، لأنه في الغالب الأعم يلاحظ أن المعلم يستنجد بالعامية في شرح دروسه، وحتى اللهجات المحكية والدارجات، كما يطرح إشكال آخر يتمثل في مدى مسايرة الكم من الدروس في مختلف المهارات (القراءة، الكتابة، التعبير الكتابي والشفوي، الإملاء) للزمن السنوي، ومدى نجاعة هذه الدروس وفاعليتها في الأداء اللغوي السليم، حيث يلاحظ الكثيرون من المنتمين إلى الأسرة التربوية ما يلي :

- كثافة الدروس وثقلها مقارنة بالحجم الساعي المفروض.
- شيوع الأخطاء اللغوية الكثيرة في الكتب المدرسية خاصة في بداية زمن الإصلاحات التربوية.
- عدم إدراك المتعلمين للكثير من الدروس اللغوية والابتعاد عن العربية الفصحى.

3.5.2. مدى استجابة العينة لمعيار مطابقة المحتوى لسن التلاميذ وإمكانياتهم الذهنية

يراعى أثناء صناعة الكتاب المدرسي بشكل عام مستوى وسن التلاميذ المتمدرسين، وكذلك أوضاعهم العائلية والمادية، من أجل اختيار المحتوى المناسب لهم لنجاح العملية التعليمية، والمتفحص لهذه الكتب يجد مواضيع هي أعلى بكثير من المؤهلات الذهنية للمتعلمين خاصة في المرحلة الابتدائية، وقد رصدنا أولا مجموعة من المصطلحات الأكاديمية الجامعية قد لا يفهمها المعلم نفسه وإن تمكن منها لا يمكن أن يشرحها بصورة مبسطة للتلميذ، وهي ضرورة ملحة

جدا لأن مفاتيح العلوم مصطلحاتها، من بين هذه المصطلحات نذكر حصرا : "المعجم"، "النص التوثيقي"، "الصيغ والأساليب"، "تراكيب وظواهر نحوية" وهذه المصطلحات هي عناوين لمحاور مدرجة في كتب التعليم الابتدائي، ثم تتدرج في الصعوبة كلما اتجهنا إلى عناوين المواضيع خاصة منها اللغوية، نرصد منها حصرا :[10]

- الرصيد الخاص بالزمن.
- الترابط الدلالي.
- أضداد الصفات.
- الرصيد الخاص بالطائرة.
- الرصيد الخاص بالتلفزة والحاسوب والانترنيت.

فهذه المواضيع ذات صلة بعلم الدلالة، وهو من العلوم اللغوية المتخصصة التي تدرّس كوحدة خاصة في الجامعة الجزائرية، ومن الصعب أن يدرك التلميذ الصغير الذي ينتمي إلى فئة عمرية أولى مضمون هذه المصطلحات المجردة، إضافة إلى تعثره باللغة الأم، حيث لا يستعمل اللغة العربية الفصيحة وهو ما يقف أمامه أثناء اختياره لكلمات أخرى مترادفة وقد لا يملك وسيلة لذلك، إضافة إلى إدراج بعض المواضيع ليست لها علاقة ببعض مناطق الوطن كالصحراء مثلا "البحر"، وليست لها علاقة بإمكانيات المتعلم "الحاسوب"، "الانترنيت"، "القاموس".

أما فيما يتعلق بالمواضيع اللغوية المرتبطة بالنصوص، تراكيب وظواهر نحوية، الصيغ والأساليب، الصرف، الإملاء، فهي أيضا بالغة التعقيد لا يمكن أن نعلمها للتلميذ في ضوء مجموعة من المعطيات : الزمن، الإمكانيات العقلية للتلميذ، المواد الأخرى المعادلة للغة العربية ...إلخ، فمن حيث طبيعتها فهي أعلى بكثير وكثيرة جدا في البرنامج، وقد أحصينا عدد المواضيع في التراكيب والظواهر النحوية فقط فوجدنا أنها ناهزت الثلاثين موضوعا وهذا العدد وفي مادة واحدة ضخم جدا ولا يمكن للمعلم أن ينجح في إيصالها

للمتعلمين، ولا يمكن حتى للمتعلمين أن يفقهوا محتواها ولا أن يمارسوها في الحياة اليومية، إضافة إلى أربع عناوين بالغة التعقيد في وحدة واحدة، وهذه المواضيع هي[11]:

- الجملة الفعلية + الصفة.
- الجملة الفعلية + الحال..
- الجملة الفعلية + الصلة الذي والتي.
- الجملة الفعلية + الصلة اللذان واللتان.

وفي آخر هذا العنصر نصل إلى النتائج التالية :

1- لم تساير طبيعة الدروس المعروضة في العينة سن التلاميذ.

2- لم تساير طبيعة المواضيع اللغوية في العينة الإمكانيات الذهنية للتلميذ.

3- كثافة المواضيع في كل الأنشطة ومغالاتها في التجرد يجعل من المعلم يقف عاجزا أثناء شرحها.

4- المصطلحات المفتاح في البرنامج صعبة جدا ولا يمكن تناولها في المرحلة الابتدائية.

4.5.2- مدى استجابة العينة لمعيار التناسق والانسجام بين المواضيع والوحدات

من أجل تحقيق فاعلية في الكتاب المدرسي بشكل عام، ومن بين المعايير المأخوذة في صناعة الكتاب المدرسي الجزائري، عنصري الاتساق والانسجام بين المواضيع والوحدات من أجل أن يحدث التكامل بينها، ويؤثر إيجابا على المتعلمين، ولمعاينة هذا المعيار قمنا برصد هذه المواضيع المتوازية بين نشاطي القراءة والمطالعة الموجهة، في كتاب السنة الثالثة من التعليم المتوسط[12]:

بطاقة هوية	الحرية
حلم مزعج	الموت والزيتون
كولومبوس والبحر	أهل الكهف
لوكيوس يتحول	في عيادة طب الأسنان

إن ما يلاحظ على هذه المواضيع المأخوذة حصرا في سبيل الاستشهاد يلاحظ عدم الانسجام بينها، بالرغم من أنها ستدرس متوازية، أو على الأقل في أسبوع واحد يتم تدريس موضوع القراءة، ويدعم بموضوع المطالعة الموجهة.

2.5.5. مدى استجابة العينة لمعيار الاستجابة لمتطلبات العصر

إن الرهان الأصعب الذي يصادفه صانعو الكتب المدرسية هو مدى استجابة مختلف النصوص المعروضة في الكتب المدرسية لمتطلبات العصر، ومنه إشباع حاجيات المتعلم من أجل إرضائه، وعدم النفور من الكتب المدرسية، وهذا الأمر يتوقف على جاذبية النصوص الأدبية، حيث تشتمل مجموعة من النصوص المعروضة على مجموعة من المواضيع ذات صلة بالواقع منها :[13] "المكتبات بين الماضي والحاضر"، "العرب والعلم"، "تقنية جديدة لرصد حركات الإنسان"، "تموج الفضاء"، "الكسوف والخسوف"، "الشباب"، "هجرة الأدمغة".

لقد وفقت العينة المختارة في اختيار مواضيع بعينها تهم المتعلم بدرجة أكبر، إذ تعالج القضايا الراهنة التي لها علاقة بالواقع المعاش كمواضيع الشباب، التطورات التكنولوجية والاختراعات في مختلف المجالات، والتطرق إلى واقع العالم العربي ومقارنته بغيرهم من الأمم، وهذه المواضيع كلها يمكن أن تستهوي المتعلم ويسجل حضوره خاصة في ظل تطبيق المقاربة بالكفاءات والذي يعول عليه كثيرا في العملية التعليمية.

إلا أن ما يؤخذ على بعض هذه المواضيع أنها مأخوذة بطريقة غير منهجية، انطلاقا من الملاحظات التالية وفي ضوء ما يلي :[14]

- عدم ذكر المؤلف مثل : "القبعات الزرق جنود في خدمة السلم، عن مجلة الجيش، العدد 502 ماي 2005."

- عدم ذكر المصدر المقتبس منه مثل: «سيارة المستقبل، روب كامبوس "بتصرف"، المدينة الحديثة، محمد الأديب "بتصرف"».[15]

- الإشارة فقط إلى الانترنيت كمصدر وهذا غير معتد به لكثرة السرقات فيه، ونسب النصوص إلى غير أصحابها مثل: «من شمائل الرّسول ﷺ، الانترنيت».

وبالتالي ينبغي على الجهات الوزارية المختصة أن تعيد تقييم الكتاب المدرسي كل عام من التجربة والعرض على الأسرة التربوية، من أجل إصلاح بعض الأخطاء الواردة فيها مهما كان نوعها لبلوغ الهدف المنشود.

• الخاتمة :

يعد البحث في مثل هذه المواضيع بمثابة تقييم وتقويم للعملية التعلمية التعليمية بكل أركانها، خاصة ما يتعلق منها بالوسيلة التعليمية الرسمية وهو "الكتاب المدرسي"، هذه الأداة التعليمية الأساسية والرسمية في الأطوار الأولى قد أخذت بعدا وطنيا، وشهدت تجاذبات علمية كثيرة بين المتخصصين في ميدان التربية والتعليم والوزارة المعنية خاصة في السنوات الأولى من الإصلاحات التربوية في الجزائر، فراح الكثير من أعضاء الأسرة التربوية يعدد الأخطاء اللغوية المبثوثة في الكتاب المدرسي ويحصونها بالآلاف، وهذه ظاهرة صحية أكثر منها مرضية، ومخاض عسير شهده ميلاد الكتاب المدرسي، لأنه حتما سيخضع لتقييم العاملين في الميدان، وهم الأساتذة بالدرجة الأولى.

لا بد أن يمر الكتاب المدرسي بمجموعة من المراحل قبل أن يخرج في هيكله الأخير وهي مراحل متكاملة ومهمة كلها بدءا بمرحلة ما قبل صناعة الكتاب المدرسي والتفكير فيه، حيث يجب على المهتمين بهذه العملية أو الذين أوكلت لهم هذه المهمة أن يطلعوا على نماذج عالمية من الكتب المدرسية في الدول التي قطعت أشواطا في ميدان إصلاح التربية والتعليم، من أجل الإلمام بمختلف جوانب الكتاب المدرسي مع الأخذ بعين الاعتبار الأبعاد المحددة للدولة الجزائرية وهي: البعد الديني، البعد الهوياتي، البعد التاريخي، البعد الاجتماعي والأخلاقي، مرورا بمرحلة صناعة الكتاب المدرسي حيث ينزوي مجموعة من الباحثين من مختلف الجامعات الجزائرية وإطارات وزارة التربية

الوطنية من أجل مباشرة أشغال صناعة الكتاب المدرسي ويجب أن تختار نصوص ونشاطات اللغة العربية بعناية وبمنهجية سليمة، مع الأخذ بعين الاعتبار المدة الزمنية، وما يمكن أن يطرأ على العام الدراسي من مستجدات، وصولا بمرحلة الإخراج الأخير وعرضه على الجهات المختصة.

بالرغم من مرور الكتاب المدرسي بالمراحل التي ذكرناها إلا أنه مازال لم يكتمل بعد، لأن مرحلة التقييم والتقويم هي مرحلة الحكم عليه، وهي لا تمثل الإلغاء بقدر ما تمثل التصحيح والإثراء لبعض الإشكالات الموجودة فيه، وهي مرحلة حاسمة جدا وصحية يتجلى فيها الكتاب المدرسي في صورته النهائية ليعرض على المتعلمين سالما من كل العيوب، من أجل أن يضاهي الكتب المدرسية العالمية.

كما نختم هذه الورقة العلمية بما يلي من توصيات :

1- الأخذ بعين الاعتبار المعايير العالمية قبل صناعة الكتاب المدرسي.

2- إشراك جميع الفاعلين أثناء صناعة الكتاب المدرسي.

3- تشكيل لجنة متخصصة في كل عام من أجل تقييم الكتب المدرسي انطلاقا من جمع المعطيات من الواقع التربوي.

4- أن يكون الكتاب المدرسي ثريا ويعكس حجم وتنوع الجزائر، أو إنتاج كتب جهوية محلية تناسب طبيعة كل منطقة.

الإحالات

1- سهيل رزق دياب، تطوير أداة لقياس جودة الكتاب المدرسي وتوظيفها في قياس جودة كتب المنهاج الفلسطيني، ورقة علمية مقدمة في المؤتمر الأول لكلية التربية، جامعة الأقصى، التجربة الفلسطينية في إعداد المناهج، 2006، ص 5.

2- نقلا عن : عبد الكريم غريب، المنهل التربوي، منشورات عالم التربية، الجزء الثاني، ط1، 2006، المغرب. ص 500.

3- علي أحمد حسن الربيع، تقويم كتاب التربية الإسلامية للصف الثامن بالجمهورية اليمنية من وجهة نظر المعلمين، قسم العلوم التربوية، جامعة حضرموت للعلوم والتكنولوجيا، حضرموت

للدراسات والبحوث، السنة الثالثة، ع 4، 2003، ص ص 13، 14 وينظر أيضا في هذا الشأن: دبور مرشد ، والخطيب ، إبراهيم ، أساليب تدريس الاجتماعيات ط 4، عمان ، دار الأرقم ، 1987 م، ص 40.

4- عبد الكريم غريب، المرجع السابق، ص 575.

5- علي أحمد حسن الربيع، المرجع السابق، ص 16.

6- بندر بن خالد حسن عسيلان، تقويم كتاب العلوم المطور للصف الأول المتوسط في ضوء معايير الجودة الشاملة، دراسة تكميلية للحصول على درجة الماجستير في المناهج وطرق تدريس العلوم، جامعة أم القرى، كلية التربية، قسم المناهج وطرق التدريس، المملكة العربية السعودية، 2011، ص 51.

7- المرجع نفسه.

8- سمية شاتي يونس هندي، تحليل كتب التربية الوطنية للمرحلة الأساسية الدنيا، أطروحة مقدم استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في المناهج وطرق التدريس بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، 2009، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، ص 12.

9- ينظر للتحقق من الأمر كتابي :

- رياض النصوص (كتابي في اللغة العربية «قراءة - تعبير - كتابة»)، السنة الثالثة من التعليم الابتدائي، وزارة التربية، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

- رياض النصوص (كتابي في اللغة العربية)، السنة الرابعة من التعليم الابتدائي، السنة الرابعة من التعليم الابتدائي، وزارة التربية الوطنية، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

10- ينظر التوزيع السنوي للمحتوى، المراجع نفسها.

11- ينظر التوزيع السنوي للمحتوى في رياض النصوص (كتابي في اللغة العربية «قراءة ـ تعبير ـ كتابة»)، السنة الثالثة من التعليم الابتدائي، وزارة التربية، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

12- ينظر التوزيع السنوي لمحتوى كتاب: اللغة العربية (السنة الثالثة من التعليم المتوسط)، وزارة التربية الوطنية، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

13- لمزيد من التفاصيل يرجى الإطلاع على كتابي :

- اللغة العربية (للسنة الثالثة من التعليم المتوسط)، تأليف: الشريف مريبعي، وزارة التربية الوطنية، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

- اللغة العربية (للسنة الرابعة من التعليم المتوسط)، تأليف: الشريف مريبعي، وزارة التربية الوطنية، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

14- كتاب اللغة العربية للسنة الرابعة.

15- المرجع نفسه.